الأساطير السائدة في شبه القارة خلال القرون الوسطى
(في مرآة كتابات الرحالة العرب)

*إنعام الحق غازي

Abstract

The article is based upon the writings of Arab travelers about the Sub-continent. The focus is on the myths, in vogue, which dominated the minds of the inhabitants during various centuries especially from the third century A.H. to the eighth century A.H. The narrative accounts of about 14 Arab travelers have survived directly or indirectly which provide description of various phenomena of different parts of the sub-continent during these centuries. Among these 14 travelers, two have been prominent in narrating & depicting the prevailing myths and legends that mostly originated in religious literature of Hinduism. These two travelers are: Ibn Battuta and Al-Biruni. Ibn Battuta seems a perfect narrator as he totally relied on his observation or on the reports of people whom he met here & whom we can consider the first hand source for him. Al-Biruni, on the other hand, emerges as a keen scholar and researcher who goes deep into the written records and uses his critical abilities to depict these myths and legends.

Keywords: Arabic travel-logs, Indian society in the mediaeval ages, History of Subcontinent, Indology

ملخص البحث:

فالمقال يتناول جانباً مهمًّا من جوانب الحياة الفكرية السائدة في المناطق المختلفة لشبه القارة خلال القرون الوسطى ولاسيّما خلال القرون الستّة الهجرية أي من القرن الثالث الهجري إلى القرن الثامن الهجري، والجانب الذي يفحص فيه هذا البحث هو الأساطير. والمراد بالأساطير تلك القصص والأحداث الّتي تسيطر على أذهان النّاس بحيث يعتقدونها صحيحة أو أقرب إلى الصحّة، وقد تكون بعض عناصرها الأساسية صحيحة ولكن الأمر الذي يغلب عليها هو الخيال والمبالغة. والجدير بالذكر أنَّ الفحص الذي قمت به من خلال هذه الرحلات الأربعة عشر ، يوضّح أنَّ الرحالتين الّذين توجّها إلى هذا الجانب أكثر هما: البيروني(ت/440ه) وابن بطوطة(ت/779ه والجدير بالذكر هنا أيضاً أنّ بعضاً من هذه الأساطير مصدرها يرجع إلى ديانة وفي معظم الأحوال الديانة الهندوسية وبذلك يبدو وكأنّه يتّصل بعقائدها كذلك. وعلى أية حال، فإنّ كتابات هؤلاء الرحالة العرب توفّر معلومات ممتعة جدّاً في موضوع الأساطير وبالتالي تدعو الباحثين إلى التعمّق والدراسة الفاحصة أكثر.

*أستاذ مساعد بكلية اللغة العربية، الجامعة الإسلامية العالمية إسلام آباد

الكلمات المفتاحية:

أدب الرحلات العربي، المجتمع الهندي في القرون الوسطى، تاريخ شبه القارة، الدراسات الهندية

المقدمة:

السين والطاء والرّاء أصلٌ مطّرد يدلّ على اصطفاف الشّئ كالكتاب والشجر وكلّ شئ اصطفّ. فأمّا الأساطير فكأنّها أشياء كتبت من الباطل فصار ذلك اسماً لها مخصوصاً بها. والسطر الخط والكتابة وكلمة الأسطورة، على وزن أفعولة ومعناها أكتوبة، هي أحد اشتقاقات الجذر الثلاثي و تفيد معنى الكتابة الموجودة على وسائل الكتابة المتنوعة مثل الألواح [1].

وأمّا **المعنى الاصطلاحي، فالأسطورة** وجمعها الأساطير، تنمّ عن شخصيات بارزة (سلبية أو إيجابية وأحياناً تنمّ عن أحداث تفسّر حدوث بعض الظواهر) وُجدت في تاريخ الشعوب والأمم وأظهرت بطولاتٍ وصفات خلقية عظيمة جعلت تلك الشعوب والأمم تعشق وتحب بعضاً وتكره وتبغض بعضاً آخر مما حفّز ها على المبالغة في وصفها. وللأساطير حيّز كبير في ذاكرة الشعوب، فلها أبعاد فلسفية ودينية ومعنوية عميقة لدى الناس بحيث تلعب دوراً جوهرياً في تحديد السلوكيات الفردية والاجتماعية[2]. و لعلّ هذا هو الأمر الّذي جذب الرحالة العرب إلى تسجيل تلك الأساطير السائدة الّتي شاهدوها أو سمعوا عنها وحاولوا تفسير بعضها.

و أمّا ظاهرة **الرحلة والسفر** فهي من الظواهر الإنسانية القديمة جدّاً، وجدت بوجود الإنسان على الأرض، وقد وردت في القرآن الكريم كلمات تدلّ على أهمية الرحلة والأسفار ووسائلها في الحياة؛ فالكلمة: "رحْل" مع جمعها رِحال (وتعني ما يوضع على ظهر البعير للركوب) والكلمة :"ورِحلة"(بمعنى الارتحال) جاءت فيه في أربعة مواضع: ثلاثة منها، وهي الكلمة "رحْل"، في سياق قصّة يوسف عليه السلام [3] وواحد، وهي الكلمة "رِحْلة"، في سورة قريش [4] . والجدير بالملاحظة أنّ كلتا الكلمتين تتّصلان بنشاط السفر والتجوال والارتحال وما يحتاج إليه في هذا النشاط. وأضف إلى ذلك ورود كلمات أخرى لها صلة وثيقة بهذا النشاط البشري؛ فقد ورد عدد كبير (سبعة وعشرون على الأقل) من الكلمات المشتقة من الجذر: س ي ر الذي يدلّ أصلاً على التحرّك والتنقّل[5] .

ونجد كذلك أنّ حياة الأنبياء والرسل لا تخلو من هذه الظاهرة أي الرحلة؛ فقد كانت رحلة نبيّنا نوح عليه في الماء، وبدأت رحلة سيّدنا موسى عليه السلام بعد الولادة مباشرة، وارتحل سيدنا يوسف عليه السلام من كنعان إلى أن وصل إلى مصر وقام سيّدنا إبراهيم عليه السلام بأسفار في البرّ وفوق ذلك أسفار سيد الأنبياء محمّد صلى الله عليه وسلم لغرض التجارة وهجرته من مكة إلى المدينة المنوّرة [6].

وينقسم هذا البحث إلى ثلاثة أجزاء ، يتضمن **الجزء الأوّل** نبذة عن رحلات العرب في شبه القارة خلال القرون الوسطى، **والجزء الثاني** ، وهو صلب المقال ، يتحدّث عن الأساطير السائدة في شبه القارة ، وهو موّزع تحت عناوين جانبية. وأمّا **الجزء الثالث** فيسجّل نتائج البحث.

1- نبذة عن رحلات العرب في شبه القارة:

للعرب تاريخ قديم في الرحلات الداخلية أي في داخل الجزيرة العربية، والخارجية أي في البلاد المجاورة والنائية الأخرى ولكنّ النشاط الحيوي في الرحلات وكتابتها انبثق بعد أن جاء الإسلام وانتشر نوره في أنحاء العالم مثل آسيا وإفريقيا والمغرب، ومن بين هذه المناطق شبه القارة الهندية-الباكستانية؛ فقد اهتمّ بها الخلفاء الراشدون ، وأرسلوا البعثات لدراسة الظروف واستكشاف الأحوال بهذه المنطقة. فأوَّل بعثة أرسلت إلى الهند هي البعثة التي اهتمّ بإرسالها عثمان بن أبي العاص الثقفي، وكان والياً على البحرين في عصر الخليفة الراشد الثاني عمر بن الخطاب رضي الله عنه دون أن يعلمها الخليفة، فعند ما علم بها طلب عثمان الثقفي وقال له:

"يا أخا ثقيف حملت دوداً على عود، وإنّي أحلف بالله لو أصيبوا لأخذت من قومك مثلهم" [7]

والبعثة الثانية وهي أقرب ما تكون رحلة استكشافية، أرسلها إلى الهند الخليفة الراشد الثالث عثمان بن عفّان رضي الله عنه، فقد أرسل والي العراق بأمره حكيم بن جبلة في وفد إلى الهند ليتفقّد أحوالها وعندما رجع حكيم أرسله والي العراق إلى الخليفة، فقال حكيم بن جبلة واصفاً أحوال الهند أمام الخليفة:

" ماؤها وشل وثمرها قلّ ولصّها بطل، إن قلّ الجيش ضاعوا وإن كثر جاعوا"

فقال له عثمان رضي الله عنه: "أخابر أم ساجع"؟ قال "بل خابر" [8] .

ولكنَّ الرحلات الحقيقية إلى شبه القارة بدأت في الربع الأوَّل من القرن الثالث الهجري؛ وتتمثّل الرحلة الأولى في أسفار الرحالة البارز سليمان التاجر (زمن التجوال: 237هـ=851م) الذي ظلَّ يتجوَّل في الصّين والهند سنوات طويلة لأغراض تجارته وكان يرغب في تسجيل مشاهداته وملاحظاته خلال هذه التنقّلات التجارية في هذين البلدين[9].

وتقول الدراسات إنَّ عدد الرحالة العرب الذين زاروا شبه القارة خلال القرون الستّة أي من القرن الثالث الهجري إلى القرن الثامن الهجري يصل إلى أربعة عشر رحالة وهم: سليمان التجار (237هـ) والسيرافي (264هـ) واليعقوبي(ت/284هـ) ومحمد بن اسحاق تمّ تأليف الكتاب الذي يوجد فيه رحلته أي الأعلاق النفيسة لابن رسته في (290هـ) والمسعودي (306هـ) وأبو دلف (331هـ) والإصطخري (340هـ) وبرزك بن شهريار (تم تأليف الكتاب في 342هـ) وابن حوقل (ت/367) والمقدسي (ت375هـ) والبيروني (412هـ) والهروي (ت/611) وابن المجاور (ت /690) وابن بطوطة (734هـ-743هـ).

وقد اهتمّ كلّ هؤلاء الرحالين بتسجيل ما شاهدوه وما سمعوه بالإضافة إلى أنَّ بعضاً منهم استند إلى مصادر ووثائق مكتوبة أيضاً. فلدينا مادَّة ثريّة تركها لنا الرحالون العرب وتتضمّن هذه المادّة جميع جوانب

الحياة في شبه القارة الهندية-الباكستانية مثل الظروف الاجتماعية والأوضاع الاقتصادية والأحوال الدينيّة والحياة السياسية والظروف الفكرية والجغرافية.

2- الأساطير السائدة:

الأساطير التي تناولها الرحالة العرب بالتسجيل والقص وأحيانا بالتفصيل والتحليل متنوعة، ويرجع هذا التنوع إلى المصادر والمجتمعات والثقافات التي نبعت منها أو إلى ثقافة الرحالة العرب وخلفيتهم الفكرية والدينية والعقلية وما إلى ذلك من أمور تسهم في تكوين الشخصية.وفيما يلي بيان لهذه الأساطير تحت عناوين جانبية:

جبل سرنديب وأسراره:

رأى ابن بطوطة خلال زيارته لجبل سرنديب، حيث قدم آدم عليه السلام، الورد الأحمر على قدر الكف، ويروى أنّ النّاس يزعمون أنّ في ذلك الورد كتابة يقرأ منها اسم الله واسم رسوله عليه الصلاة والسلام[10]. وعند أصل الجبل في هذا الطريق وهو طريق "ماما"(أي حواء)، "درَخت رَوَان" وهي شجرة عادية لا يسقط لها ورق، ورأي ابن بطوطة هنالك جملة من الجوكيين ملازمين أسفل الجبل ينتظرون سقوط ورقها وهي بحيث لا يمكن التوصل إليها ألبتّة. ولهم أكاذيب- كما يقول ابن بطوطة معلّقاً على ذلك- في شأنها، من جملتها أنّ من أكل من أوراقها عاد له الشباب إن كان شيخاً[11].

ورقة شجرة يستشفّى بها:

وقد شاهد هذا الرحالة نفسه- ابن بطوطة- في مدينة "دَه فتّن" ببلاد المليبار إزاء الجامع، شجرة خضراء ناعمة تشبه أوراقها أوراق التّين إلاّ أنّها لينة وعليها حائط يطيف بها، وعندها محراب صلّى الرحالة فيه ركعتين، واسم هذه الشجرة عندهم "درخت الشهادة"، وأخبره الناس هنالك أنّه إذا كان زمان الخريف من كلّ سنة، تسقط من هذه الشجرة ورقة واحدة بعد أن يتحول لونها إلى الصفرة ثم إلى الحمرة ويكون فيها مكتوباً بقلم القدرة: **لا إله إلاّ الله محمد رسول الله.** وأخبره الفقيه حسن وجماعة من الثقات كذلك أنّهم عاينوا هذه الورقة وقرأوا المكتوب الذي فيها و أنه إذا كانت أيام سقوطها ،قعد تحتها الثقات من المسلمين والكفار، فإذا سقطت، أخذ المسلمون نصفها وجعل نصفها في خزانة السلطان الكافر، وهم يستشفّون بها للمرضى. وهذه الشجرة كانت سبب إسلام جدّ" كُوُيَل" اسم الملك) الذي عمّر المسجد والباين، وأحد أولاده كفر بعد أبيه وطغى وأمر باقتلاع الشجرة من أصلها فاقتلعت و لم يترك لها أثراً، ثم إنّها نبتت بعد ذلك وعادت كأحسن ما كانت عليه وهلك الكافر سريعاً[12].

كيف بدأ زرع النارجيل في مالديف؟:

يتحدّث ابن بطوطة عن قصّة زرع النارجيل في جزائر ذيبة المهل (أي مالديف) وهي أسطورة كانت تسود على أذهان أهل هذه الجزائر وكانوا يزعمون أنّ حكيماً من حكماء الهند في غابر الزمان كان متّصلاً بملك من الملوك ومعظّماً لديه، وكان للملك وزير بينه وبين هذا الحكيم معاداة، فقال الحكيم للملك: إنّ رأس هذا الوزير إذا قُطع ودُفن تخرج منه نخلة تثمر بتمر عظيم يعود نفعه على أهل الهند وسواهم من أهل

الدنيا. فقال له الملك: فإن لم يظهر من رأس الوزير ما ذكرته؟ قال: إن لم يظهر فاصنع برأسي كما صنعت برأسه. فأمر الملك برأس الوزير فقطع وأخذه الحكيم وغرس نواة تمر في دماغه وعالجها حتى صارت شجرة وأثمرت بهذا الجوز. ويقول ابن بطوطة بعد ذكر هذه الحكاية: "وهذه الحكاية من الأكاذيب ولكن ذكرناها لشهرتها عندهم"[13].

عفريت يقتل الناس ليلاً:

عندما وصل ابن بطوطة إلى مدينة بَروَن سمع أنّ بها سباع كثيرة تقتل الناس ليلاً، ومن العجيب – كما يقول- أنّ بعض الناس أخبرني أنّ الذي يفعل ذلك ليس بسبع وإنّما هو آدمي من السّحرَة المعروفين بالجوكية(متصوفة الهنود)، يتصور في صورة سبع، "ولّما أخبرتُ بذلك أنكرته"[14].

للقردة ملوك:

يقول البيروني مسجّلاً الأساطير المتنوعة والمنتشرة في أوساط البيئات الهندية أنّ هناك جبالا للقردة، على ستة عشر فرسخاً من قلعة "لنك" نحو المشرق، يخرج ملكها كلّ يوم مع الجماعات ولهم مجالس مهيَّأة وقد هيّأ أهل تلك الأرض لهم الأرز المطبوخ، فيحملونه إليها على أوراق، فإذا طعمت رجعت إلى الغياض، وإن تغوفل عنها كان في ذلك هلاك الناحية لكثرتها وصولتها. ويزعم أهل الهند أنّها أمّة من النّاس ممسوخة لأجل معونة "رام"(وهو هيكل سابع لصورة الرحمة والربوبية المسمىّ "بوشنو" عند الهنود والذي حارب الشاطين وغلبهم) على محاربة الشياطين، وأنّ تلك القرى أوقافه عليها وأنّ من وقع إليها فأنشد شعر "رام" لها ورقى رقياته عليها أصاغت لها وسكنت إلى استماعها وأرشدت الضالّ وأطعمت وسقت، ويقول البيروني عن هذه الأسطورة: "فإن كان من هذا شيء فهو من جهة اللحن"[15]. ويروي ابن بطوطة عن بعض أهل سيلان (سري لانكا) أن القرود بها لها مقدّم تتبعه كأنّه سلطان يشدّ على رأسه عصابة أوراق الشجرة ويتوكّأ على عصا ويكون عن يمينه وعن يساره أربعة من القرود لها عصى بأيديها، وأنّه إذا جلس القرد المقدم تقف القرود الأربعة على رأسه وتأتي أنثاه وأولاده فتقعد بين يديه كلّ يوم وتأتي القرود فتقعد على بعد منه ثم يكلّمها أحد القرود الأربعة فتنصرف القرود كلّها، ثم يأتي كل قرد منها بموزة أو ليمونة أو شبه ذلك فيأكل القرد المقدم وأولاده والقرود الأربعة. ويروي ابن بطوطة أيضاً عن بعض الجوكية أنّه رأى القرود الأربعة بين يدي مقدمها وهي تضرب القرود بالعصى ثم نتفت وبره بعد ضربه[16].

كيف دخل الإسلام في جزائر مالديف:

يذكر ابن بطوطة حكاية أسطورية طويلة تشرح سبب دخول الإسلام إلى جزائر ذيبة المهل (أي مالديف)، وهو يرويها عن الثقات - وفق تسميته- بها مثل الفقيه عيسى اليمني والقاضي عبدالله، وخلاصة هذه الحكاية أنّ هذه الجزر كانت كلّها كفاراً، وكان يظهر لهم في كلّ شهر عفريت من الجن يأتي من ناحية البحر كأنّه مركب مملوء بالقناديل، وكانت عادتهم إذا رأوه أخذوا جاريةً بكراً فزيّنوها وأدخلوها إلى "بُدخانة" (أي

بيت الأصنام) وكان مبنيّاً على ضفة البحر وله طاق ينظر إليه منها ويتركونها هنالك ليلة، ثم يأتون عند الصباح فيجدونها مفتضّة ميّتة! ولا يزالون في كلّ شهر يقترعون بينهم، فمن أصابته القرعة أعطى بنته. ثم إنّه قدم عليهم مغربي يسمّى بأبي البركات البربري وكان حافظاً للقرآن العظيم فنزل بدار عجوز منهم بجزيرة المهل، فدخل عليها يوماً وقد جمعت أهلها وهن يبكين كأنّهنّ في مأتم، فاستفهمهنّ عن شأنهنّ، فلم يفهمن فأتى ترجمان فأخبره أن العجوز كانت القرعة عليها وليس لها إلاّ بنت واحدة يقتلها العفريت فقال لها أبو البركات: أنا أتوجّه عوضاً من بنتك بالليّل وكان سِفاطاً لا لحية له، فاحتملوه تلك الليلة وأدخلوه إلى بُدخانه وهو متوضئ وأقام يتلو القرآن ثم ظهر له العفريت من الطاق، فداوم التلاوة، فلمّا كان منه بحيث يسمع القراءة غاص في البحر وأصبح المغربي وهو يتلو على حاله، فجاءت العجوز وأهلها وأهل الجزيرة ليستخرجوا البنت على عادتهم فيحرقوها، فوجدوا المغربي يتلو فمضوا به إلى ملكهم وأعلموه بخبره، فعجب منه وعرض المغربي عليه الإسلام ورغّبه فيه فقال له: أقم عندنا إلى الشهر الآخر، فإن فعلت كفعلك ونجوت من العفريت أسلمت، فأقام عندهم وشرح الله صدر الملك للإسلام فأسلم قبل تمام الشهر وأسلم أهله وأولاده وأهل دولته، ثم كرّر المغربي فعله في بُدخانه في الشهر القادم، ولم يأت العفريت، فجاء السلطان والنّاس معه وكسروا الأصنام وهدموا بدخانة وأسلم أهل الجزيرة وبعثوا إلى سائر الجزر فأسلم أهلها، فأقام المغربي عندهم معظّماً وتمذهبوا بمذهبه أي مذهب الإمام مالك رضي الله عنه. وهم إلى هذا العهد يعظّمون المغاربة بسببه، وبنى مسجداً وهو معروف باسمه. وقرأت -كما يقول ابن بطوطة- على مقصورة الجامع منقوشاً في الخشب: أسلم السلطان أحمد شنورازه على يد أبي البركات البربري. وجعل ذلك السلطان ثلث مجابي الجزائر صدقة على أبناء السبيل إذاكان إسلامه بسببهم. ويذكر ابن بطوطة بأنّه بسبب هذا العفريت خرب من هذه الجزائر كثير قبل الإسلام. ويحكي الرحالة عن مشاهدته ويقول: وبينا أنا ليلة في بعض شأني إذ سمعت النّاس يجهرون بالتهليل والتكبير ورأيت الأولاد وعلى رؤوسهم المصاحف والنساء يضربن في الطسوت وأواني النّحاس، فعجبت من فعلهم وقلت: ما شأنكم؟ فقالوا: ألا تنظر إلى البحر، فنظرت فإذا مثل المركب الكبير وكأنّه مملوء سرجاً ومشاعل، فقالوا: ذلك العفريت وعادته أن يظهر مرة في الشهر، فإذا فعلنا ما رأيت انصرف عنّا ولم يضرنا[17].

مكانة جبل " ميرو" عند الهندوس:

يروي البيروني رؤية الهنود تجاه جبل ميرو(يعتبر جبل "ميرو" بقممه الخمسة مركزاً للكائنات الطبيعية وما بعد الطبيعية والروحية لدى الهنود والبوذيين) الذي في برّية "نندن بَنْ" وهو بستان الجنّة، وهذا الجبل مبنيّ من صفائح الذهب وقد نجم من خلالها أشجار كثيرة الزهر والأنوار، طيّبة الروائح يطوف عليها "برمر" دائماً بزمر لذيذ ويتردّد فيه قحاب "ديو" (شخصيات مقدسة في الهندوسية تتحوّل إلى كائنات روحانية. و أحياناً تتحارب فيما بينها) بأغاني مطربة وملاه ملهية وفرح دائم. والنزعة البحثية لدى البيروني تدفعه إلى التعمق في هذا الموضوع فلذلك نراه يلجأ إلى كتابات "البرانات" (وهي كتب الروايات والتاريخ عند الهندوس) و"الرشيّين" (الصلحاء في الديانة الهندوسية) الكثيرة حول جبل "ميرو" والتي تتّصف بعناصر أسطورية:

فهو أي جبل "ميرو" واسطة الديبات (الجزائر) والأبحر ووسط "جَنْبُ ديب" (اسم جزيرة) منها. ويعلو وجه الأرض علوّاً مفرطاً وأنّه تحت القطب والكواكب تدور حول سفحه فيكون منه الطلوع والغروب. وسمّي "ميرو" لاقتداره على ذلك ولأنّ الرأس إنّما يكشف النيّرين بقوّته ونهار سكّانه من الملائكة يكون ستّة أشهر وليلتهم ستّة أشهر. ويرى البعض أنّ جبل "ميرو" مربّع وليس بمدوّر وأنّ الأرض مبسوطة وأنّ جبل" ميرو" من ذهب وجوهر، وهو كالنّار الصافية من كدر الدخان ذو أربعة ألوان في جوانبه الأربعة، فلون الشرقي منها أبيض كلون البراهمة (الطبقة العليا في الهندوسية) ولون الشمالي أحمر كلون كشتر (الطبقة الوسطى) ولون الجنوبي أصفر كلون بيش (الطبقة بين العليا والوسطى) ولون الغربي أسود كلون شودر(الطبقة الدنيا). يجري أنهار عذبة وفيه مساكن ذهبيّة طيّبة يسكنها من الرّوحانيّين "ديو" ومغنّوهم وحوله حوض اسمه "مَانَسُ" وحول الحوض في جهاته الأربع "لوكبال" وهم حفظة العالم وأهله. ولجبل "ميرو" سبع عقد ، هي جبال عظام، وأمّا الجبال الصغار فلا تكاد تحصى كثرة وهي التي يسكنها النّاس[18].

قصة القطب:

ومن الأساطير فكرة الهنود عن القطب وهو بلغتهم –كما يقول البيروني- "درُب" والسماء تستدير على القطب كدوّارة الخزّاف، والقطب يدور على نفسه ولا يتحرّك من مكانه ويستوفي في الدوران في ثلاثين "مهورتا" أي في يوم بليلته. وقد سمع البيروني من علماء الهندوسية أنّ ملكاً قد استحق الجنّة بحسن أعماله و لم يطب قلبه بترع بدنه عن نفسه عند انتقاله فقصد "الرشّ" (الرجل الصالح) واسمه"بُشيت" وأعلمه أنه يحبّ بدنه ولا يريد مفارقته، فآيسه عن حمل البدن الأرضي من الدنيا إلى الجنّة، وعرض أيضاً حاجته على أولاد "بشيت" فجبهوه ببزقهم وسخروا به وصيّروه جندالا مشنّف الأذنين بقرطق جديد، فجاء إلى "الرش" اسمه "بشفامتر" على تلك الحالة فاستفظعها وسأله عنها فأخبره بها فغضب "بشفامتر" وأحضر البراهمة لعمل قربان كبير وأولاد "بشيت" فيهم وقال لهم: إنّي أريد أن أعمل عالماً آخر وجنّة أخرى بسبب هذا الملك الصالح يبلغ فيه منتهاه، وابتدأ بعمل القطب وبنات نعش التي في الجنوب وخافه "اندر" (ملك الآلة في الجنة وفق الهندوسية) الرئيس والروحانيّون، فجاءوا إليه متضرّعين يسألونه إهمال ما ابتدأ فيه على أن يحملوا الملك ببدنه كما هو إلى الجنّة وفعلوا ذلك. فترك عمل العالم الثاني إلاّ ما كان عمل منه إلى وقتئذٍ. وقد زعم بعض الناس من الهنود أنه يظهر في الصيف بمولتان كوكب أحمر منخفض عن مدار سهيل يسمّونه "شول" وهو خشبة الصلب، والهند يتشاءمون به ولذلك إذا كان القمر في "بوربابتربت" (أحد منازله) لم يسافروا نحو الجنوب فإنّه فيه[19].

إيلاد البشر:

ومن هذه الأساطير كذلك أنّ "براهم" (أحد الآلة) لّما أراد إيلاد البشر قسّم نفسه بنصفين: اسم النصف الأيمن هو "بِراز" واسم النصف الأيسر هو "مَنُ" وصار "لَنُ" ابنان أحدهما الملك الأحنف الرجل وله ابن اسمه "درُبّ". وقد لحقه استخفاف من امرأة أبيه فأعطى لأجله القدرة على إدارة الكواكب كلّها كما يريد

وبقي في مكانه إلى الأبد. وفي إحد "البرانات" –كما ينقل البيروني- واسمه "باج بران": إنّ الريح تحرّك الكواكب حول القطب وهي مربوطة به برباطات لا يراها الناس[20].

التشاؤم من جهة الجنوب:

يخبرنا البيروني في أكثر من موضع من رحلته بأنّ الهنود يتشاءمون بجهة الجنوب ولا يعملون فيها شيئاً من أعمال البرّ، ولا يَخطُون فيها خطوة نحوها، وإنّما يجعلونها لأعمال الشّر [21].

"لنك" قلعة الشياطين:

ويزعم الهنود أنّ "لنك" (وهي قبة الأرض عند الهندوس) فيما بين نهايتي المعمورة، عديم العرض وهو الّذي تحصّن فيه "راون" (عدوّ الخير) الشيطان حين اختطف امرأة "رام" وحصنه الملتوي يسمّى "تنكت برد" ويزعمون أنّ "رام" عبر البحر إليه عن شرق "سرنديب" (سري لانكا) وقاتله وقتله وقتل أخوه أخاه على ما هو موصوف في قصّة "رام" في "راماين" (وهي ملحمة مشهورة لدى الهندوس). ويزعمون أنّ "لنك" قلعة الشياطين وارتفاعها عن الأرض ثلاثون جوزناً يكون ذلك ثمانين فرسخاً وطولها من الشرق إلى الغرب مائة جوزن وعرضها من الشمال إلى الجنوب مثل ارتفاعها[22].

قوم يأكل الناس:

ويزعم الهنود أنّ وراء السند قوماً يأكلون النّاس، ثمّ من المعلوم عند أهل البحر أنّ سبب توحّش أهل جزيرة "لنكبالوس" هو أكلهم النّاس[23].

بنات نعش هم الصلحاء السبعة:

يتحدّث البيروني عن بنات نعش وزعم الهنود تجاهها؛ فهي تسمّى بلغتهم "سبّت رشين" أي الصلحاء السبعة ويذكرون أنهم كانوا زهاداً طلبوا رزقهم من الحلال ومعهم امرأة صالحة اسمها "السهى" واجتنبوا سوق النيلوفر من الحياض ليتغذّوا بها، وجاء الدّين (دهرم) فأخفاها عنهم واستحيا كلّ واحد من الآخر، فحلف بأيمان استحسنها الدين ورفعهم إلى الموضع الذي يرون فيه تكرمة لهم، له ناحية الشمال متبرّجة بهذه الكواكب تبرّج الحسناء بعقد لآلىء منظومة وقلادة من النيلوفر الأبيض مرصوفة، بل هي كجوار راقصة تدور حول القطب يأمرهنّ[24].

لماذا يوجد " مهاديو" بذكره في المعابد؟:

يتحدّث البيروني عن ذَكَر "مهاديو" (رئيس الشخصيات الروحانية المقدّسة) ووجوده في معابد الهنود كما أنّه يذكر السبب في ذلك، وهو أنّ "رشّاً" رأى "مهاديو" عند امرأته فساء ظنّه به ودعا عليه بإعدام الذَكر، فباينه وصار ممسوخاً من ساعته، ثم أقام "مهاديو" عند ذلك الرشّ علامات براءته وصحّحها بالحجج حتى زال عن قلبه ما خامره وقال: فسأكافيك بأن أجعل صورة العضو الذي فارقك معظّماً في النّاس يتوسّل به ويتقرّب إليه. (ويذكر البيروني كيفية صنعته ونصبه بالتفصيل نقلاً عن كتبهم) وفي البلاد الجنوبية الغربيّة عن بلاد السند يكثر هذه الصورة في البيوت المفروضة لعبادتهم[25].

الأصنام وأفعالها:

ينقل الرحالة سليمان التاجر عقيدة أهل الهند بأنّ البددة (الأصنام) تكلّمهم ثم يقول: إنّما يكلّمهم عبادهم. ويقول الرحالة ابن اسحاق: الهند يقولون إنّ هذا صنم ملتان (مدينة في باكستان) نزل من السماء وأمرنا بعبادته، ويطلعنا الرحالة أبو دلف على ما يراه أهل المنصورة والديبل وبغانين من أنّ الصحراء "زردشت" التي فيها بيت الذهب الذي لا يقع عليها أي على الصحراء الثلج ويثلج ما حولها، متى خرج منها إنسان يطلب دولة لم يُغْلب و لم يُهزم له عسكر حيثما توجّه.

أجناس الخلائق ووظائفها:

يصف البيروني أجناس الخلائق ووظائفهم عند الهنود ووصفه لهم يشبه الأساطير الإغريقية عن الآلهة والملائكة والأبالسة؛ فالمشهور –كما يقول- من أجناس الروحانيّين الثمانية:

- "ديو" وهم الملائكة (الشخصيات الروحانية) ولهم ناحية الشمال واختصاصهم بالهند
- ثم "ديت دانو" وهم الجنّ الذين في ناحية الجنوب وفي قسمتهم كلّ من خالف نحلة الهند وعادى البقر. وعلى قرب القرابة بينهم وبين الملائكة زعموا أنه لا ينقطع التنازع بينهم ولا تهدأ حروبهم.
- ثم "كاندهرب"وهم أصحاب الألحان والأغاني بين أيدي الملائكة.
- ثم "جكشن" وهم خزّان الملائكة.
- ثم "راكشش" وهم شياطين مشوّهون.
- ثم "كنّر" على صورة النّاس ما خلا رؤوسهم فإنها رؤوس الأفراس.
- ثم "ناك" وهي على صورة الحيّات.
- ثم "بدّاذر" وهم جنّ سحرة لا يدوم رواج سحرهم.

بطل الملحمة المسماة ب" مهابهارتا":

وقد تحدّث البيروني عن ملحمة "مها بهارتا" وذلك خلال كلامه عن بطل هذه الملحمة وهو "باسديو". ويزعم الهند أنّ "باسديو" ظهر في المرّة الأخيرة على صورة الإنس حين كثرت الجبابرة في الأرض وامتلأت من الظلم حتى كانت تميد من الكثرة وترتجّ من شدّة الوطأة. فولد "باسديو" ببلد "ماهوره" (مثرا) من أخت "كنس" وَالِيه حينئذٍ. وكان عرف "كنس" أنّ هلاكه من جهته –أي "باسديو"- بنداء سمعه وقت عُرس أخته فوكّل بها من يحمل إليه أحمالها إذا وضعت، وكان يقتل ذكرها وأنثاها إلى أن ولد لها "بلبهدر" فأخذته "جَسُو" زوجة "نند" البقّار، وربّته واحتالت لاخفاء أمره على الموكّلين. ثم ولد لها بعده في البطن الثامن "باسديو" في ليلة مطيرة كانت. وغفل الحرّاس بنوم أثقلهم وسرقه أبوه وحمله إلى "نندكول" أي موضع مربط البقر الذي "لنند" زوج "جَسُو" وهو قريب من "ماهوره" وبينهما نهر "جَوْن" وأبدله بابنة "نَنْد" كان اتّفق ولادتها وقت بلوغ "باسديو" إليهم. وحمل الابنة الحرّاس بدل الابن فأراد "كنس" الوالي قتلها فطارت في الهواء

وذهبت. وتربّى "باسديو" في يد "جسو" المرضعة في غير أن تعلم أنّه بدل ابنته واطّلع "كنس" على أمره. فكاده بكلّ كيد ومكر رجعت كلّها عليه حتى طلبه من أبويه للصراع بين يديه. فأناف "باسديو" في فعله على الجميع بعد أن فعل في الطريق ما أغاظ به خاله من قهر حيّة كانت موكّلة بحفظ "نيلوفر" (أي حوضه) وزمّها في منخريها ومن قتل قصّاره لّما امتنع من إعارته ثياباً للمصارعة، ومن سلب الصندل صاحبته المؤكّلة بتضميخ المصارعين به. ثم قتل الفيل المغتلم المهيّأ لقتله على بابه. وبلغ من عمل الغيظ في "كنس" ان انشقّت مرارته وهلك لوقته وملك "باسديو" مكانه... ثم يحكي البيروني قصصه وحروبه الأخرى مع صهر الميّت ويذكر كيف أجلى "باسديو" إلى البحر حيث ظهرت له قلعة "باروي" ذهبيّة فسكنها[26].

الحركة والسكون:

ومن الأساطير التي نبعت عن العقائد الدينيّة ما يقسّمه الهنود المدّة إلى وقتي حركة وسكون بيقظة "براهم" ورقدته، وجملة عمر "براهم" على تناوب الحركة والسكون في العالم فيه تحسب للوجود لا للعدم وعمر "براهم" كلّه نهار لم يعله، فإذا مات انحلّت المركّبات في ليله وتعطّل ما إلى الطبيعة حفظه لتلاشيها وتلك راحة "بورش" ومراكبه.

قوة تتجسّم وهي دافعة للفساد:

يذكر البيروني "ناراين" وهي ،عند الهنود، قوّة من القوى العالية غير قاصدة الإصلاح بالأصلح ولا الإفساد بالفساد وإنّما هي دافعة للفساد والشرّ بما أمكن، وقد يكون لها في العالم حلول بشبه أهله من التجسّم والتبدّن والتلوّن إذ لا يمكن غير ذلك... فمن مرّات مجيئ- أي مجيئه السادس- والتي دمّر فيها على الملك "بل بن بيروجن" الذي استوزر الزهرة وملك الدنيا. فإنه لّما سمع من أمّه فضل أيّام أبيه على أيّامه إذ كان على أوّل "كريتاجوك" (وهو العصر الذهبي المتميّز بالخير والسلامة) أقرب والنّاس في راحة أغرق ومن التعب أبعد، هزّته الهمّة على التنافس في ذلك، فأخذ في أعمال البرّ وبثّ الأعطية وتفريق الأموال وتقريب القرابين التي يستحق عند استتمام مائة منها رئاسة الجنّة والعالم، فلمّا قارب التمام من تسعة وتسعين منها أشفق الروحانيّون على مكانتهم وعلموا أنّ مالهم من الناس منقطع إذا استغنوا عنهم، فاجتمعوا إلى "ناراين" مستصرخين به، فأجابهم إلى ملتمسهم ونزل إلى الأرض في صورة "بامَنْ" -وهو الإنسان الذي يقصر يداه ورجلاه عن مقدار بدنه- وجاء إلى الملك "بل" وهو في عمل القربان والبراهمة عنده حول النيران والزهرة وزيره بين يديه، وقد فتحت الخزائن... فأخذ "بامن" كالبراهمة في قراءة "بيذ" من الموضع الذي يسمّى الآن "سام بيذ" بلحن شيح مطرب هزّ الملك على السخاوة له مما أراد واقترح، فسارّته الزهرة بأنّ هذا "ناراين" قد جاء لاستلاب ملكك، فلم يحفل بقولها لشدّة طربه وسأله عمّا يريد فقال: مقدار أربع خطوات من ملكك اتعيّش فيها فقال: اختر ما تريد وكيف تريد وطلب الماء ليصبّه على يده فينفذ بذلك ما أمر به... ودخلت الزهرة الإبريق لشدّة محبّتها للملك وسدّت بلبلته لئلاّ يخرج الماء فتحبس ثقبة البلبلة بحشيشة خاتم البنصر، وعور عين الزهرة ونحاها فسال الماء، وخطا "بامن" واحدة إلى المشرق وأخرى إلى المغرب وثالثة إلى فوق و لم يبق للرابعة من الدنيا موضع فاسترقّه بها

ووضع رجله بين كتفيه وغوّصه في الأرض حتى ساخ إلى أسفل السافلين وأخذ العوالم منه وسلّم الرئاسة إلى "بَرَنْدَرَ". ويذكر البيروني في موضع آخر من كتابه أن "بشن" وهذه عبارة عن "ناراين" أيضاً يجئ في "كريتا جوك" في صورة "كبل" وفي" تريتا جوك" في صورة "رام" وفي دوابر في صورة "بياس" وفي "كل جوك" في صورة "كل بن جشو البرهمن"[27].

كسوف الشمس والقمر:

ينقل البيروني رؤية الهنود في كسوف الشمس والقمر؛ فالرأس يعضّ على الشمس والقمر حتى يكسفهما، وقصة الرأس في زعمهم تتلخص في أنّه كان من جملة "ديَت" وأن الملائكة لّما استخرجوا الهناءَةَ من البحر سألوا "بشن" توزيعها بينهم ففعل، وجاء الرأس متشبّهاً بالملائكة في الصورة وداخلهم ولّما ناوله "بشن" بالقسم من الهناءة تناوله وشربه، وعرف "بشن" أمره فضربه بالجكر المستدير وحزّ رأسه، فبقي الرأس حيّاً بسبب الهناءة التي في الفم ومات البدن إذ لم يكن بلغته ولا انتشرت فيه قوّتها، فتضرّع الرأس قائلاً بأي ذنب فعل بي هذا؟ فعوّض بالرَّفع إلى السماء وتصييره مع جملة أهلها ولا يظهر في السماء أصلاً إلاّ في وقت الكسوف. وإذا أخذ الرأس أحد النيّرين بالكسف طهر جميع ما على الأرض من المياه وصارت كماء "كنك" (النهر) في الطهارة[28].

القمر ومنازله:

ويزعم الهنود –كما يقول البيروني- أنّ منازل القمر بنات "برجابت" وأنّ القمر تزوّج بهنّ ثم أولع من بينهنّ "بروهني" فآثرها عليهنّ وحملت الغيرة أخواتها على شكايته إلى أبيهنّ، فاجتهد عليه بالتسوية بينهنّ ووعظه فلم ينجح فيه، وحينئذٍ لعنه حتى برص وجهه، وندم القمر على فعله فجاءه تائباً عن ذنبه فقال له "برجابت": قولي واحد لا رجوع فيه ولكنّي أستر فضيحتك من كلّ شهر نصفه. قال القمر: فالذنب السالف كيف ينمحى عنّي أثره؟ قال: بنصب صورة "لنك مها ديو" مخدوماً لك ففعل، وهو حجر "سومنات"، وسوم هو القمر ونات يعني الصاحب فهو صاحب القمر[1]. وثمة تفسير آخر عن المحو في القمر الذي يسمّى "ششلكَشْ" أي صورة الأرنب، وينقل هذا التفسير البيروني قائلاً: "فهو أي المحو انعكاس صور الجبال السّتة عشر بضوء القمر إلى جرمه فهو يقبل صورة الأرض كما يقبلها المرآة وفي الأرض جبال وأشجار متفاوتة الأشكال يتصوّر منها في صورة أرنب"[29].

المدّ والجزر في البحر بسب النار:

يخبرنا الرحالة البيروني أنّ عامّة الهنود يعتقدون في المدّ والجزر أنّ في البحر ناراً اسمها "بروانَل" دائمة التنفس ويكون المدّ منها بجذب النفس والانتفاخ بالرّيح ويكون الجزر بإرسالها النفس وزوال الانتفاخ عنها[30].

كيف جاء نهر "كنك" إلى الأرض:

ومن المعتقدات الأسطورية السائدة لدى الهنود والمذكورة في كتبهم ما ينقله البيروني من قصّة مجئ نهر كنك إلى الأرض وهي تتلخّص في أنّ الشمال كيلاس (وهي من المناطق التي حول جبل "ميرو") جبل يسمّى "كوَرُ" وفي سفحه حوض "بندسَرْ" أي الّذي رمله ذهب، وعنده تزهّد "بهكيرث" الملك؛ وذلك أنّه كان للملك لهم يسمّى "سكرُ" من الأولاد ستّون ألف ابن كلّهم دُعّار وأشرار، واتّفق أن ضلّت لهم دابّة، فنشدوها وأداموا الركض في طلبها حتى انهارت الأرض من شدّة ركضهم على ظهرها. ووجدوا دابّتهم في جوفها واقفة بين يدي رجل مطرق غاصّ الطرف، فلمّا قربوا منه أزلقهم ببصره فاحترقوا مكانهم وحصلوا في جهنّم بسوء أعمالهم... ثمّ كان من نسل هذا الملك ملك يسمّى "بهكيرث" سمع بخبر أسلافه فرقّ لهم، فذهب إلى الحوض المذكور الذي قراره ذهب مسحول وأقام هناك صائماً أيّامه قائماً في العبادة لياليه حتّى سأله "مها ديو" عن حاجته فقال: أريد نهر "كنك" الجاري في الجنّة علماً منه بأنّ من جرى ماؤه عليه مغفور له ذنوبه فأجابه إلى ملتمسه، ثم أخذ منه قطعة وأعطاه "بهكيرث" حتى أجرى الشعبة الوسطانية من شعبة السبع على عظام أجداده ونجوا بذلك من العذاب[30].

لماذا يبقى ماء البحر على حاله؟:

يذكر البيروني في رحلته سبباً لبقاء ماء البحر على حاله وذلك كما وردت في روايات الهنود الدّينيّة؛ فالنّار التي تسمّى "سمرتك" تشرب ماء البحر وقصّتها أنّ ملكاً كان لهم يسمّى "أورَبُ" ورث الملك من أبيه وقد قتل وهو جنين، فلمّا ولد وترعرع وسمع خبر أبيه غضب على الملائكة وجرّد سيفه لقتلهم بسبب إهمالهم حفظ العالم مع عبادة الناس إيّاهم وتقرّبهم إليه، فتضرّعوا إليه واستعطفوه حتى أمسك وقال لهم: فماذا أصنع بنار غضبي؟ فأشاروا عليه بإلقائها في البحر وهي التي تتشرّب مياهه، ولو لا ذلك لامتلأ انصباب الأنهار إليه. ويقولون أيضاً –كما يذكر البيروني-: إنّ ماء الأنهار لا يزيد في البحار من أجل أنّ "اندر" الرئيس يأخذها بالسحابة ويرسلها أمطاراً.

أربعة جبال حول جهات البحر:

يرى الهنود أنّ هناك أربعة جبال في كلّ جهة من جهات البحر ويذكرون سببه أنّ ستّة عشر جبلاً كانت في القديم ذوات أجنحة تطير بها وترتفع فأحرقها شعاع "اندر" الرئيس حتى سقطت حول البحر مقصوصة الأجنحة في كلّ جهة أربعة، وفيما بين الثالث والرابع من الجبال الشرقية توجد نار "سمرتك" المشار إليها[32].

الأعمار في قديم الدهر:

كانت الأعمار –كما ينقل البيروني اعتقاد الهنود- في أيّام "رام" الملك طويلة مقدّرة معلومة ولذلك لم يمت فيها ولد قبل والده، ثم اتّفق موت ابن لبرهمن وهو حيّ فحمله أبوه إلى باب الملك وقال له: إنّ هذا لم يبتدء في أيّامك إلاّ بفساد في الأرض ووزير يرتكب في مملكتك، فأخذ "رام" في الفحص عن ذلك إلى أن دلّ

على "جندال" يجتهد في العبادة وتعذيب النفس، فركب إليه ووجده على شطّ نهر "كنك" قد علّق نفسه منكوساً، فأوتر "رام" قوسه وضرب بالسهم قَتَبَته فأنفذه وقال: هوذا أقتلك على خير ليس إليك فعله. ورجع وقد عاش ابن البرهمن الموضوع على بابه[33].

برص النار:

ومن الأساطير الدينيّة التي نقلها البيروني قصّة برص النّار ثم إصلاحها، وتنطوي هذه القصة على عناصر أسطورية خيالية أخرى أيضاً، فبعد أن أعجب "مهاديو" بأمرأة اسمها "دُكيش" دامت على الاجتهاد وفي العبادة وامتحان النفس بالصوم والزهادة، تزوّج بها، ولّما خلا بها –ومن شأن "مهاديو" أن يطيل المباشرة ويبطئ الإنزال- فظنّت النّار للأمر وغارت خوفاً أن يتولّد منهما نارٌ مثلها فقصدت بهما للتكدير والإفساد. وحين رآها "مهاديو" عرق جبينه من شدّة الغيظ حتى سال على الأرض فتشرّبته وحبلت منه بالمرّيخ وهو "اسكندر"، وتناول "ادر" المفسد نطفة مهاديو ورمى بها فتفرّقت في بطن الأرض وهي "الرقيق الرخراق". وأمّا النار فإنّها برصت وساخت من فرط الخجل إلى الأرض السفلى. ولّما افتقدها "ديو" أقبلوا على طلبها والبحث عنها، فدلّتهم الضفدع عليها وحين رأتهم فارقت مكانها واختفت في شجرة "أشوَت" ودعت على الضفدع أن تكون ناقصة الصياح مبغضة على القلوب. ثمّ دلّتهم الببغاء على مكانها، فدعت عليها بانقلاب اللسان حتى يكون أصله نحو طرفه وقال لها "ديو": إن انقلب لسانك فكوني بالمآنس ناطقة وللطيبات آكلة. وهربت النّار من شجرة "أشوَت" إلى شجرة "شَمّي" فغمز بها الفيل فدعت عليه أيضاً بانقلاب اللسان فقال له "ديو": إن انقلب لسانك فكن مشاركاً للإنس في مطاعمهم فطناً لكلامهم. ثم عثروا على النّار فتلكّت عن الكون معهم وهي برصاء، فأصلحوها وأزالوا برصها وأعادوها إليهم مكرّمة جعلوها فيما بينهم وبين النّاس واسطة تأخذ انصباءهم منهم وتوصلها إليهم[34].

كيف بدأ الطبّ؟

يرى الهنود أن الأرض لم تزل في قديم الدهر خصبة سليمة، والنّاس متحابّون مؤتلفون لا حرص فيهم ولا تنازع ولا تباغض ولا تحاسد ولا شيء ممّا يُسقم النفس والبدن. فلمّا جاء الحسد عقبه الحرص، وحين حرصوا اجتهدوا في الجمع فاشتدّ على بعضهم وسَهُل على بعض ودخلت عليهم الأفكار والمتاعب والغموم ودعت إلى الحرب والمخادعات والكذب، فقست القلوب وتغيّرت الطبائع وحلّت الأسقام وشغلت عن عبادة الله وإحياء العلم فاستحكم الجهل وعظمت البليّة، فاجتمع الصلحاء إلى ناسكهم "قبرس بن اطري" حتى صعد الجبل وتضرَّع فعلّمه الله علم الطب[35].

ريح تستلب الأرواح وعلاجها:

ويعتقد الهند المقاربون لبقاع "لنك" في الجدري أنّها ريح تنزعج من جزيرة "لنك" نحو البلاد لاستلاب الأرواح. وحكي أنّ منهم من يُنذر بانزعاجها قبل كونه ثم يوقّت بلوغها بقعةً بعد بقعة. وإذا ظهر

الجدري عرفوا بعلامات لها كيفيّتها أسليمة هي أم مهلكة. واحتالوا للمهلكة حتى تفسد عضواً واحداً بدل الروح ويتداوون منها بالقرنفل سقياً مع بُرادة الذهب وشدّ الذكران القرنفل الشبيه بنوى التمر على الأعناق حتى أنّه لا يخرج من عشرة منها إلاّ واحدة(36).

فنّ "الرساين":

وقد تحدّث البيروني عن فنّ "الرساين" (فن طبي كيمياوي يعلّم صنع الذهب ويعطي قوات خارقة) عند الهنود بالتفصيل وذكر خلال ذلك حكايات وقصص تتّسم بالأسطورية والخرافية وتلقي ضوءاً على جانب مهمّ من جوانب الحياة الفكرية لديهم:

- وقد كان في أيّام "بكرمادت" الملك رجل يسمّى "بياري" صرف إلى هذا الفنّ همّته وأفنى من عمره وقنيته و لم يُجد عليه جهده بما يسهل عليه مقصده. فلمّا اضطرّ في النفقة تبرّم بما تقدم له فيه الاجتهاد وجلس على شطّ نهر متحسّراً مغتمّاً ضجراً وبيده قرابا ذينه الذي منه كان يأخذ نسخ الأدوية، وجعل يطرح في الماء منه ورقة بعد ورقة. واتّفق أن كان على شطّ ذلك النهر في أسافله بعض الزواني وممّر الأوراق عليها فكانت تجمعها وتطلّع منها على "رساين" وهو لا يراها إلى أن فنيت الأوراق فأتتْه سائلة عن سبب فعله بكتابه فأجابها لأنّي لم أنتفع به و لم أصل إلى شيء من أربي وأفلست بسببه بعد الذخائر الجمّة، قالت الزانية: لا تعرض عمّا أفنيت فيه عمرك ولا تيأس عن وجود شيء قد أثبته الحكماء قبلك، فربّما كان الحائل بينك وبين الوصول إلى حقيقته أمراً اتفاقياً يتفق زواله أيضاً، ولي أموال كثيرة معتقدة وكلّها لك مبذولة لتنفقها على ارتياد مطلوبك. فعاد الرجل إلى عمله، فكان يقع له في نسخة الدواء غلطٌ من جهة اللغة في الدهن ودم الإنسان يحتاج إليهما فيه. ولذلك لا ينجح. فلمّا أخذ في طبخ الأدوية أصابت النّار رأسه وبيّست دماغه فتدهّن بدهن أكثر صبّه على الهامّة وقام من عند المستوقد لشغل، فوافق سمتَ رأسه من عوارض السّقف وَتدٌ ناتئ فشجّه بالصدمة وأدماه وعاد مطرقاً للألم الذي عراه وتقطّر من يافوخه إلى الطنجير قطرات دم ممزوجة بدهن وهو لا يفطن لذلك إلى أن أدرك البطيخ واطّلَى به للامتحان هو والمرأة، فطار في الهواء وأخبر "بكرمادت"(الملك) بذلك فخرج من قصره إلى الميدان ليعاينهما فناداه الرجل: افتح فمك لبزاقي، فلم يفعل ذلك أنفةً ووقع البزاق عند الباب فامتلأت السُّدّة ذهباً. وذهب هو مع المرأة حيث أراد طائراً وعمل في هذا الفنّ كتباً مشهورة وهو معها إلى الآن حتى لم يمت.

- ومن مشابه هذا الحديث أنّ في مدينة "دهار" قصبة "مالوا" وعلى باب الوالي في دار الإمارة قطعه فضّة خالصة مربّعة مستطيلة فيها تخاييل أعضاء الإنسان. وقد ذكروا في أمرها أن رجلاً قصد ملكاً كان لهم "برساين" إذا عملها بقي حيّاً لا يموت مظفّراً لا يُغلب قادراً على ما يروم ويطلب. فاستخلى الملك موعده وأمر بإحضار جميع ما طلبه وأخذ الرجل في إغلاء دهن إيّاماً حتى بلغ قوامه وقال للملك: ارم بنفسك فيه حتى أتمّم لك الأمر، فهال الملك ما رأى وابتعد. فلمّا أحسّ الرجل بفشله قال له: فإن كنت لا تجترئ عليه ولا تره لنفسك، فهل ترضاه لي حتى أفعله بنفسي؟ قال الملك: ذاك إليك. فأخرج الرجل صُرر أدوية وعرّفه علامات تظهر منه ليلقى عليه عند ظهور كلّ واحدة صُرّة منها معيّنة، وقام الرجل إلى الدهن وتردّى فيه، فتفسَّخ وهمّأ

وأخذ الملك يفعل ما مثّله له إلى أن قرب التمام وبقيت صرّة غير ملقاة، فأشفق الملك منه على ملكه إذا انبعث كما ذكر فتوقّف عن إلقاء الصرّة وبرد القدر والرجل مجتمع فيها . وهو تلك النقرة.

- ويتحدّثون في "بَلب" ملك مدينة "بَلَبه" أنّ رجلاً ممّن نال مرتبة "السدّية" (مرتبة الروحانية) كان سأل بعض الرعاة عن نبات يسمّى (توهَر) وهي من جملة اليتوعات التي تسيل لبناً عند القطف، هل شاهد منه ما يسيل دماً بدل اللّبن؟ فقال نعم ورضخه الرجل بشيء ليدلّه عليه ففعل وحين رآه أشعل النّار فيه ورمى بكلب الراعي إليها فحَرِد الراعي وأخذ الرجل وفعل به فعله بكلبه وتربّص إلى خمود النّار ووجد كليهما ذهبيّين فأخذ كلبه وترك الرجل، فعثر عليه بعض الرستاقية وقطع إصبعه وأتى بها إلى بقّال واشترى منه ما احتاج إليه وعاد إلى الرجل الذهبيّ فوجد إصبعه قد نبتت وعادت إلى حالها فأخذ يقطعها ويشتري بها من ذلك البقّال ما يريد حتى استعمله البقّال أمرها فدلّه بحماقته عليها عمد البقّال إلى بدن الرجل الذهبيّ فحمله على عجلة إلى داره واستغنى بمكانه حتى أنّه استولى على أملاك البلاد وطمع "بلب" الملك فيه وطالبه بمال فامتنع عليه ثم خاف احتقاده فلجأ إلى صاحب المنصورة وبذل له أموالاً واستنجده بحشيش الماء في السفن فأجابه إلى ذلك وأنجده، فبيّت الملك "بلب" وقتله وأتى على قومه وخرّب بلده. فيقال إنّه إلى الآن يوجد في أرضه ما يوجد في البقاع المخرّبة بالبيات والمغافصة[37].

الديبات السبعة:

اهتمّ الرحالة البيروني بجمع أفكار الهنود في الديبات (الجزائر) السبعة بالتفصيل وعقد لها باباً مستقلاً، وهذه الأفكار تبدو وكأنّها أساطير أذكر بعضاً منها هنا لغرض التمثيل لا لأجل الحصر:

- جبل "ميرو" هو واسطة الديبات (الجزائر) والأبحر ووسط "جنب ديب" منها شجرة تمتدّ فروعها مائة جوزن

- في "مدّ ديش" أي وسط البلاد جنسان يسمّى أحدهما "كينبرش" ويعرف رجالهم بلون الذهب يعيشون عيشاً طويلاً لا يمرضون مدّة حياتهم ولا يرتكبون وزراً ولا يتحاسدون وغذاؤهم ما يعصرونه من ثمرة نخل. والجنس الآخر "هربُرش" على لون الفضّة يعمّرون أحد عشر ألف سنة لا يلتحون وطعامهم قصب السكّر. ويعلّق البيروني على هذه الأسطورة قائلاً: فمن جهة ما ذكر من عدم اللحية ولون الذهب والفضّة، ذهب الخاطر إلى الترك ولكن من جهة التغذي بالتمر والقصب انحرف عنهم إلى نواحي الجنوب، وأنّى يوجد هذان اللونان في أهلها إلاّ لون اليمسختج أي الفضة المحرقة. وفي الزنج شيء من ذلك وهو أن لا غمّ لهم ولا تحاسد فيهم إذ لا يملكون شيئاً به يقع ذلك، والعمر فيهم لا محالة أطول منه في بلادنا ولكن قليلاً لا يبلغ الأضعاف.

- "شاك ديب" وفيه أنهار عظام سبعة، واحد منها مواز في الطهارة "لكنك" وفي البحر الأوّل سبعة جبال ذوات جواهر يسكن بعضها "ديو" وبعضها شياطين. ومنها ذهبيّ شامخ منه يرتفع السحاب ثمّ يأتينا فيمطر. ومنها ذو الأودية كلّها ومنه يأخذ "اندر" الرئيس المطر ومنها واحد يسمّى "سوم" ومن قصّته: أنّه كان "لكشب" امرأتان إحداهما "كدْر" أمّ الحيّات والأخرى "بنتُ" أمّ الطيور وكانتا في الصحراء وبها فرس أشهب، فقالت أمّ الحيّات:

هو أدهم وتراهنتا على استرقاق الكاذبة وأخّرتا الفحص إلى الغد، فوجّهت أمّ الحيّات بالّليل أولادها السود حتى التووا عليه وستروا لونه فاسترقت أمّ الطيور زماناً. ولها ولدان أحدهما "أنور" حافظ رُخّ الشمس المجرور بالأفراس، والآخر "كرر" فقال هذا لأمّه: سَلِي أولاد ضرّتك بماذا يمكن إعتاقك، ففعلت وقالوا لها: بالهناءة التي عند "ديو" وحينئذٍ طار "كرر" إلى "ديو" وطلبها منهم فأجابوه بأنّ الهناءة من خصائصهم وإذا حصلت لغيرهم بقي بقاءهم، فتضّرع إليهم في تمكينه منها ريث ما يعتق بها أمّه ثم يردّها فرجموه ودفعوها إليه فأتى جبل "سوم" وهم به، فأعطاهم إيّاها وأعتق أمّه ثم قال لهم: لا تقربوا من الهناءة حتى تغتسلوا في نهر "كنك" فذهبوا لذلك فتركوها مكانها، فردّها "كرر" على "ديو" ونال الكرامة بذلك حتى ملك الطيور وصار مركب "بشَن".

وأهل تلك الأرض أخيار معمّرون قد استغنوا بترك التحاسد والتنازع عن سياسة الملوك وزمانهم كلّه "تريتاجوك" لا يتحوّل. وفيهم الألوان الأربعة أعني الطبقات المتمايزة لا يتصاهرون ولا يتخالطون وهم دائماً فرحون لا يحزنون.

- الجزيرة الثالثة "كُشسَ" وفيها جبال سبعة ذوات جواهر وفواكه ورياحين وزروع. إنّهم أبرار لا يأثمون يعمّر كل واحد منهم عشر آلاف.

- والجزيرة الرابعة فيها جبال ذوات جواهر وأنهار هي شعب من "كنك" وممالك أهلها بيض الألوان أخيار أطهار والناس لها مجتمعون في موضع واحد لا يتمايزون.

- والجزيرة السابعة، تفور مياههم من الأراض وترشح من الجبال، ولا يجري عندهم نهر ولا يصيفون ولا يشتون ولا يشيخون، ويأتيهم ما يريدون، لا يعرفون غير الخير، فلا خدمة ولا ملك ولا إثم ولا حسد ولا خلاف ولا قيل ولا قال ولا كدّ في زرع ولا جهد في تجارة[38].

ويقول البيروني إنّ جزيرة الوقواق من جملة قمير وهو لا كما تظنّه العوام من شجرة حملها كرؤوس النّاس تصيح ولكن قمير قومٌ ألوانهم إلى البياض قصار القدود[39].

3- نتائج البحث:

يتوصل البحث من خلال عرض كتابات الرحالة العرب السالفة الذكر ودراستها إلى نتائج يستحسن ذكرها في نهاية المطاف:

أ- توفّر لنا هذه الأساطير اعتقاد الناس في صحتها، كما أنّها توفّر مادة غنية للتأمل والتعمق في مكونات البوتقة الفكرية التي ظلت تسيطر على أهل هذه المنطقة أي شبه القارة بمفهومها الجغرافي الأوسع.

ب- الأساطير، والقصص الخرافية المروية وراءها، تنمّ عما كان يغلب على الأذهان لدى أهل شبه القارة ولاسيما خلال القرون الستة.

ت- معظم هذه الأساطير و، القصص الملتفة حولها ،ترجع إلى المعتقدات الدينية وخاصة الديانة الهندوسية.

ث- تنبع الأساطير الهندوسية من كتبهم الدينية والتاريخية ومن الملاحم المشهورة لديهم، وعلى هذا، يمكننا أن نعتبرها جزءاً من الديانة الهندوسية.

ج- وجد عدد من الأساطير، الّتي سجّلها العرب ولاسيّما ابن بطوطة، والتي كانت منتشرة بين أوساط المسلمين أيضاً ولاسيّما المسلمين الذين اعتنقوا الإسلام بدعوة من الدعاة الصالحين الذين نزلوا هذه المناطق للأغراض الدعوية الخالصة.

ح- ثمّة أساطير ما زالت تسود في الأوساط الهندوسية، ولاسيّما الّتي نبعت من "البرانات" (أي الكتب التاريخية) والوثائق الدينية. ومن الأساطير الّتي لاتزال تنعكس هي أو آثارها في المنهج الفكري لديهم ما يتعلّق بإيلاد البشر والتشاؤم من جهة الجنوب ووجود "مهاديو" بذَكَره وقصص "باسديو" ، بطل الملحمة "مها بهارتا"، ومجئ نهر "كنك" إلى ألارض.

خ- إذا أردنا أن نعرف موقف الإسلام من الأساطير والخرافات عموماً والأساطير الّتي ورد ذكرها في هذا البحث على وجه الخصوص، وجدنا أنّه- أي الإسلام- يعطينا منهجية دقيقة للنظر فيها، وتقوم هذه المنهجية على الفكر الإسلامي الّذي ينبع من النصوص القرآنية والسنّة النبويّة.

د- فقد ردّ وأبطل القرآن الكريم كثيراً من متعلقات أساطير العرب مثل النجوم والشمس وتعدّد الآلهة.

ذ- رُوي عن النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم أحاديث عديدة في موضوعات الشّعوذة والتّطيّر والكهانة والسّحر الّتي يستفاد منها النهي عن الاعتقادات في الأساطير والخرافات: فقد روى الإمام البخاري و الإمام مسلم عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَال : " لا عَدْوَى وَلا طِيَرَةَ وَيُعْجِبُنِي الْفَأْلُ، قَالُوا وَمَا الْفَأْلُ قَالَ كَلِمَةٌ طَيِّبَةٌ"[40]. وروى الإمام البخاري عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : " لا عَدْوَى وَلا طِيَرَةَ وَلا هَامَةَ وَلا صَفَرَ"[41].

ر- قد استنبط العلماء والفقهاء والمحدّثون من القرآن والسنّة النبويّة قاعدتين وهما: "الرواية أو النقل" و"الدراية أو العقل". وتظهر هذه القواعد في المنظومات المعرفية الإسلامية المختلفة ، ومن أمثلة ذلك منهج المحدّثين في قبول الأحاديث وتدوين السنّة النبوية ونظام الشهادة في القضاء الإسلامي.

ز- فإذا تمّ تقييم هذه الأساطير في ضوء النصوص القرآنية والأحاديث وعلى أساس قاعدتي " الرواية" و"الدراية" على وجه الخصوص ، فإنّه يؤدّي بنا إلى عدم قبولها على أنّها حقيقة. وقد تنبّه إلى ذلك الرّحالة العرب أنفسهم ، فبعد نقل هذه الأساطير ووصفها، أشاروا إلى أنّها مجرّد اعتقادات القوم دون أن تكون لها صلة بالحقيقة.

الهوامش

(1) انظر ابن فارس ،أبو الحسن أحمد بن فارس بن زكريا القزويني الرازي (ت/395ه) ، معجم مقاييس اللغة ، تحقيق عبدالسلام هارون، دارالفكر، 1979م و ابن منطور،محمد بن مكرم بن علي أبو الفضل (ت/711ه)، لسان العرب، دار صادر بيروت والدكتور إبراهيم أنيس وآخرون، المعجم الوسيط، دارالفكر، الطبعة الثانية، الجذر: س،ط،ر.

(2) راجع للتفصيل:Jack Wickersham, Myths & Legends of the World, Macmillan reference, 2000, USA pp.15-20 editor in chief,

(3) سورة يوسف: 62 ، 70 ، 75

(4) سورة قريش: 2

(5) انظر على سبيل المثال: القصص: 28، يوسف : 12، الحج: 22، الروم: 30، آل عمران: 3

(6) قدسیہ قریشی،'الدکتورہ وسفر ۔ ۔ ۔ ماے انیسویں صدی میں جامعہ'مکتبہ'امیہ ۔ ۔ ۔ د'نیو دہلی' 1987'ص:23

(7) البلاذري أحمد بن يحيى بن جابر بن داود (ت/297ه)، فتوح البلدان ، طبع ليدن 1866م ص:431

(8) المرجع السابق ص: 440

(9) كراتشكو فيسكي، تاريخ الأدب العربي الجغرافي، ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم، لجنة التأليف والترجمة والنشر موسكو 1957م ص: 141-142

(10) ابن بطوطة، محمد بن عبد الله بن محمد اللواتي الطنجي(ت/779ه)، تُحفة النُّظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار المعروف برحلة ابن بطوطة، تقديم وتحقيق عبد الهادي التازي، أكاديميّة المملكة المغربية الرباط 1997م ، 86/4. وسأشير إليها بعد ذلك: بابن بطوطة ، الرحلة.

(11) المرجع السابق 95/4

(12) ابن بطوطة ، الرحلة 43/4

(13) ابن بطوطة ، المرجع السابق 128/2

(14) ابن بطوطة ،المرجع السابق 20/4

(15) البيروني، أبو الريحان محمد بن أحمد (ت/440ه) ، تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة، ، عالم الكتب بيروت 1983م ص: 148-149. وسأشير إليه بعد ذلك: بالبيروني، تحقيق ما للهند.

(16) ابن بطوطة ،الرحلة 84-83/4

(17) ابن بطوطة ،الرحلة 63-62/4

(18) البيروني، تحقيق ما للهند، ص: 385، 179-182

(19) المرجع السابق ص: 176-178

(20) المرجع السابق

(21) المرجع السابق ص: 235

(22) انظر البيروني، تحقيق ما للهند، صفحات: 234-35، 237، 239

(23) المرجع السابق ص: 296

(24) لبيروني، تحقيق ما للهند، ص: 303-306 وانظر الصفحات: 307-308 للمزيد من حكايات واردة وقصص أسطورية

(25) البيروني، تحقيق ما للهند، ص: 301-303

(26) المرجع السابق ص: 393-395

(27) المرجع السابق ص: 390

(28) المرجع السابق

(29) المرجع السابق ص: 391

(30) البيروني، تحقيق ما للهند، ص: 421

(31) المرجع السابق ص: 389

(32) المرجع السابق ص: 417

(33) المرجع السابق ص: 418-419

(34) المرجع السابق ص: 290-291

(35) البيروني، تحقيق ما للهند، ص: 236-237

(36) السابق ص: 390

(37) المرجع السابق ص: 134-137

(38) انظر للتفصيل البيروني، تحقيق ما للهند، ص: 185-189

(39) المرجع السابق ص: 149

(40) الإمام البخاري، محمّد بن إسماعيل (ت/256ه) ، الجامع الصحيح ، الحديث رقم: 5776 ، والإمام مسلم، أبو الحسين مسلم بن الحجاج (ت/261ه) ، صحيح المسلم ، الحديث رقم: 2224

(41) الإمام البخاري، الجامع الصحيح، الحديث رقم: 5316